تحليل المستويات السيميوسردية

لحكاية "نصف الدّيك".

حبيب بن مالك

جامعة تلمسان

تنتمي هذه المدوّنة إلى مجموعة حكايات شعبية من منطقة جرجرة بالشرق الجزائري. ولقد رصدها الباحث نسيب يوسف في مؤلّف موسوم بـــ"حكايات شعبية من جرجرة" يندرج ضمن توجّه بدأ الدّارسون من خلاله يولون الاهتمام أكثر فأكثر بكلّ ما يتعلّق بالّذاكرة الجماعية الّتي يشكّلها الأدب الشفاهي.

1.المقطوعات–الإطار: تنفتح القصّة على وضع طبيعي مستقرّ، تبرز فيه الأختان في وفاق لكن سرعان ما تتأزّم الأمور فجأة بينهما بسبب ديكهما، بحيث تريد إحداهما أكله بينما ترغب الأخرى في إبقائه على قيد الحياة. فلم يكن لهما من سبيل يرضي كلّ واحدة منهما سوى اقتسامه مناصفة بينهما. وإذ تأكل إحداهما نصفه تفضّل الأخرى الاعتناء بنصفه الآخر إلى أن تماثل للشّفاء، فتبدأ من ثمّ رحلته الشّعائرية إلى الحجّ، فتعترض طريقه مع من رافقه من الحيوانات الأخرى، مجموعة من الأخطار، نجوا منها كلّهم في الأخير بفضل حكمته ودهائه. وفور عودتهم بعد أداء المناسك، همّ نصف الدّيك باستعمال أمكر الحيل لإحضار الذّهب إلى الّتي ساعدته في البقاء على قيد الحياة. فيما انتهت الشرهة في أسوأ الأحوال.

1.1 الشكل السردي العام نفترض أنّ " نصف الدّيك " مسار تتويج لـــ "الحكمة" بالنّظر إلى القيم أو القيمية axiologie الّتي تحكم العلاقات النّصّية. وهي أيضا في الوقت نفسه مسار نكران لـــ "الشّرّ". شكليا يمكننا إرجاع هذا التّتويج–التقويم بالمعنى السيميائي، إلى الصيغة النّحوية الكامنة والملازمة التّالية:

فا 3⟵(فا 1∩ م 1)

فا ؟⟵(فا 2 ∪م 1)

الّتي تحيل في مستوى التّجلّي اللّساني إلى:

فا1: الأخت الرّصينة، فا 2: الأخت الشرهة، م 1: القطع الذّهبية.

فا ؟: تشير علامة الاستفهام هنا إلى أنّنا نجهل الفاعل-العامل الّذي يقف وراء التّحويل الفصلي.

يُستوعب هذان الملفوظان كتحويل متمفصل لحالتين مختلفتين، فصلية ووصلية. فإذا كانت هذه الأخيرة تفترض منطقيا وحتّى سرديا افتقارا استهلاليا فإنّ الأمر يختلف بالنّسبة إلى الأولى، كون الحالة الفصلية النّهائية تعدّ تحوّلا في إطار أحادي من شكل افتقار إلى آخر.

2.2. ***المقطوعة الأولية:*** *الوصلة الأسرية* كان يا ما كان...

يفتتح السّارد هذه المقطوعة بالعبارة المقولبة "كان يا ما كان" الشائعة من جملة عبارات أخرى القصص الشعبي والملاحظ في القصّة قيد الدّراسة هو غياب الجملة الختامية المعهودة هي الأخرى في مثل هذا النّوع من المحكي. في الواقع، وإن لم يكن لهذه الظّاهرة تأثير على المسارات العامّة للأحداث، إلاّ أنّ فاعليتها على المستوى الأنموذجي غير يسيرة، ذلك أنّ وظيفتها الأساسية تتمثّل في عزل ذات المتلقّي عن المعيش تكريسا للجانب اللّا- حقيقي من الحكاية.

هذا ويبرز الممثّلان المشار إليهما أعلاه، كلّ على حدة، بملامح مختلفة. فالأوّل زيادة على ميزة "الرّصانة" اللّصيقة به على الدّوام موصول بـــ/ الثّراء/ في آخر مساره السردي. أمّا بالنّسبة إلى الفاعل الثّاني، فالأمور لا تسير بالمنوال ذاته بحيث يحتفظ بالشّراهة كخطّ مستديم و بـــ/ البشاعة/ وبـــ/الافتقار للذّهب/ في نهاية المطاف. نسجّل في هذا المستوى أنّ الرّاوي لا يشير لا من بعيد ولا من قريب إلى هوية الشخصيتين، إذ تبدوان مجرّدتين من التّسمية بعكس الحكايات الشّعبية الأخرى (على غرار لونجة وعلي بابا و سندريلا الخ...) الّتي، خلافا للأدب المكتوب، لا تعرف الأعلام غير المبرّرة، أو لنقل إنّها ليست اعتباطية[1]، بل إنّ ظهورهما لا يكاد يتجاوز المشهدين الاستهلالي والختامي. تبرز في هذه المقطوعة أيضا شخوص أساسية وأيضا ثانوية: فلدينا الصّوص-الدّيك الّذي يشكّل في لحظة ما موضوع صراع بين الفتاتين، يحمل في علاقته بهما على المستوى العاملي قيما متضاربة تشكّل في الحقيقة جوهر المواجهة بينهما. فعلى البعد النّفعي، يعدّ الحيوان من ناحية موضوعا استهلاكيا بيولوجيا:

-"آن الأوان لنأكل هذا الدّيك"ص69.

من ناحية أخرى، تسعى الرّصينة من خلال رغبتها في الوصلة المستديمة بالدّيك إلى تحقيق قيمة اكتنازية مثلما يتّضح في الملفوظ التّالي :

"بل الأفضل أن نحتفظ به" ص59.

ما يلفت انتباهنا في هذا السّياق، هو أنّ البنية المرفولوجية لهذه المقطوعة لا تكشف عن الوظائف ذاتها المتضمّنة في الوضعية الافتتاحية من النّموذج البروبي وإنّما تعرض مباشرة حلة وصلية :

"أختان تملكان صوصا واحدا"ص69 وأيضا برنامجا سرديا يتمثّل في ضمان النّموّ السّليم لهذا الحيوان الصّغير وتأتي صياغته شكليا كالآتي: (م فا1، م فا2∩ م فا3) و ذلك انطلاقا من الملفوظ:

"تعهّدتاه حتّى غدا..."ص69، الّذي يمكن قراءة الصّرة "تعهّد" فيه كـــ"هبة النّفس والوقت من أجل أحد ما"، حيث تحتلّ الأختان عامليا دور المرسل-المانح-الفاعل ودور الموضوع في آن واحد. وهي علاقة تجسّد على الصّعيد الاجتماعي-الأسري ملامح الأمومة.

إنّ هذه النّقطة من الأهمّية بمكان، على الصّعيد الأنتروبولوجي والسردي. إذ إنّ الرّابطة القائمة بين الأمّ والمرأة عموما وبين صغار الحيوانات الأليفة في المجتمع الرّيفي، شديدة الحميمية بحيث لا تقلّ عنايتها بها عن عنايتها بأبنائها، وكلّ الوحدات التيمية الّتي تفجّرها هذه الصّورة من حنان وعطف، تعتبر قاسما مشتركا بين أغلب قصص المجموعة لكن بتمثيلات مختلفة.

يعدّ برنامج /العناية بالصّوص/ محوريا على الصّعيد النّظمي، فعليه ستتأسس نسبيا التّحوّلات السّردية الّتي سنعرض لها لاحقا في سياق آخر. وبالرّغم من تحقّقه داخل الخطاب إلاّ أنّنا نجهل الجهة أو مجموعة الجهات -إضمارية كانت أو تحيينية- الّتي سمحت للفاعلين بالانتقال مباشرة إلى الفعل، لكنّ الواضح أنّ "التعهّد" يشفّ دلاليا عن "وجوب" ما يتّسم بطابعه الانعكاسي:

برنامج إضماري← برنامج تحييني← برنامج محقّق

لنمكث دائما في المستوى السّردي، فسنكتشف أنّ هذا النّصّ وفق النموذج البروبي، ينفتح على المواجهة الّتي تمثّل حياة الدّيك رهانها:

"لكنّهما تشاجرتا بسبب إصرار الشّرهة على أكل الدّيك"ص69.

ففي صلب هذه البنية السّجالية يسعى فا1 لتفعيل برنامج "أكل الدّيك" على أن تقوم كلتاهما بتنفيذه من خلال الوجوب على نحو ما يبرز في الفعل الأمري الّذي يقابله فعل تأويلي يشكّل مرحلة الإيعاز بالنّسبة لبرنامج سردي افتراضي مضادّ تحتلّ الرّصينة فيه دور المرسل وتتوخّى من خلاله إنقاذ الدّيك من الهلاك:"بل الأفضل أن نحتفظ به".

ومن منظور دلالي- منطقي، يمكن قراءة هذه الرّغبة عند الشّرسة بالنّظر إلى موقف أختها، والعكس، كالآتي: (1) فعل وجوب الفعل (2) فعل إرادة عدم وجوب الفعل.

من جانب آخر، تسير هذه الوضعيات النّحوية وفقا لخطّ الأدوار الموضوعاتية فيه الشّخصيتان منذ البداية أو بعبارة أخرى، يبدو كأنّ السارد يحاول من الوهلة الأولى توجيههما على ضوء الخطوط المحدّدة أعلاه: فلا الأخلاقية الّذي وضعت الرّصينة ينبغي أن تنحو سلوك الشّرهة ولا هذه الأخيرة

يفترض أن تتصرّف كالأولى- فقد يكون ذلك كلّه من الثّوابت الأساسية في هذه الفصيلة من الحكايات الشّعبية-. وفي هذا المستوى أيضا نجد أنّ هذين البرنامجين الافتراضيين (أكل الدّيك/الاحتفاظ به) يتمفصلان على صعيد أنموذجي مع برنامج /العناية/المتمظهر خطابيا في الصّورة "تعهّد" الّتي تحيل نواتها السيمية دلاليا إلى:

1- قطع على نفسه كذا. 2 -التزم بفعل شيء ما.

وهو الأمر الّذي يشفّ على المحور الإبلاغي عن وجود عقد ما يفترض نظاما قيميا اتفق المرسل بموجبه مع المرسل إليه على أداء العناية بالصّوص، وهما بذلك ينضويان توفيقيا – بالنّظر إلى البنية الخطابية – تحت ممثّل جماعي واحد: الأختين.

فتأسيسا على ما سبق، نقول إنّ اقتسام الدّيك يشكّل:

أ/ خرقا لهذا التّعاقد، سيجسّد أكثر عندما تقدم الشّرهة على أكل نصفه.

بـــ/ موتا لهذا الديك(الاقتسام يفترض الذّبح).

جـــ/ تجميدا للمواجهة: بناء على اتّفاق سابق ليتموقع كلا الفاعلين في أطراف علاقة متوازية باعتبار أنّ التّسوية تمّت بينهما بالتّراضي وذلك ما نستخلصه ممّا يلي:

- "إذن علينا أن نتقاسم الدّيك"ص 69.

- "فتقاسمتاه وأخذت كلّ منهما نصفه على التّمام "ص70.

يمكننا أن نقول إنّ المناصفة بين الحياة والموت تتوزّع منطقيا وفق هذا المسار على المربّع السيميائي كالتّالي:

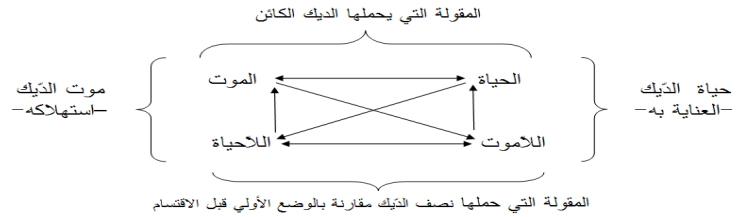

وفي نفس هذا المسار التحولي السردي الدّلالي نقول إنّ الدّيك مرّ من النّيّء إلى المطبوخ الّذي يعتبر سيميائيا تحويلا للأول وأيضا وانتقالا من الطّبيعي إلى الثّقافي.

***1*-3 المقطوعة الثّانية:** *الوصلة الرّوحية* [وبينما كان ذات يوم...ثمّ إنّ الحجّاج لزموا].

لقد وسمنا هذه المقطوعة بـــ" الوصلة الرّوحية" لأنّها تحيل إلى الانتقال للفضاء المقدّس، وتعبّر عن اكتمال بناء نصف الدّيك روحيا بعدما تمّت تنميته النّفسية المفترضة وتنميته الجسدية الفعلية.

بالنّسبة إلى الدّيك يتدخّل الحجّ سرديا مباشرة بعد تعافيه فإلى غاية اللّحظة تلك كان يشغل على محوري الإبلاغ والرغبة الوضعية العاملية للمرسل إليه وللموضوع. أمّا بعد الرّحلة المقدّسة فنشهد على طول بقية القصّة انقلابا في هذه الأدوار ليصير مرسلا مقوّما، كما سنرى، ومانحا وأيضا فاعلا منفّذا. يصاحب هذا التّحوّل السّردي تحوّل في المضامين الدّلالية والأدوار الموضوعاتية:

قبل [صوص← ديك← نصف ديك/ مرسل إليه← موضوع قيمة / حياة ← لاحياة ← لاموت مدنّس.]

↓بعد [نصف ديك ← ديك/ مرسل← فاعل منفّذ ←/لاموت ←لاحياة← حياة /مقدّس]

نلاحظ أنّ الدّيك في وضعه المدنّس انتقل سرديا من الحياة إلى اللاّحياة ثمّ إلى اللاّموت باعتباره وحدة شاملة يحمل نصفه الحيّ (لاميت) ويعدّ في آن واحد ذاكرة الجزء الميّت ثمّ بعد ذلك مرّ من اللاموت إلى اللاّحياة كون الحجّ إلغاء للذّات، لينتهي بعد ذلك إلى الحياة فيما لقيت الكلبة الهلاك.

يستند هذا الأداء إلى مجموعة من الجهات نوجزها في النّقاط التّالية:

أ/ الكفاءة الجهاتية: تقوم الكفاءة الإضمارية هنا على جهة الوجوب المتمظهرة نصيا في صورة الواجب الدّيني والمقدّس، ولقد تلقّاها الدّيك على إثر فعل تّأويلي مارسه على" سقوط التّينة "ص70.

والجدير بالذّكر أنّ لهذه الثّمرة خصوصية في المخيال الشعبي العربي الإسلامي نظرا لحضورها في القرآن الكريم. هذا وتبرز هذه الصّرة الخطابية محمّلة بوظيفة سيميائية على أنّها كيان دالّ له إيحاءاته الدّلالية والمرجعية الخاضعة لقراءة نصف الدّيك، وأيضا باعتبارها وسيطا بين هذا الأخير وبين "القدر" المدرج في خانة المرسل كما يتّضح من الجملة التّالية:

" كان نصف الدّيك قد فسّر سقوط الّتينة بأنّها دعوة القدر "ص70.

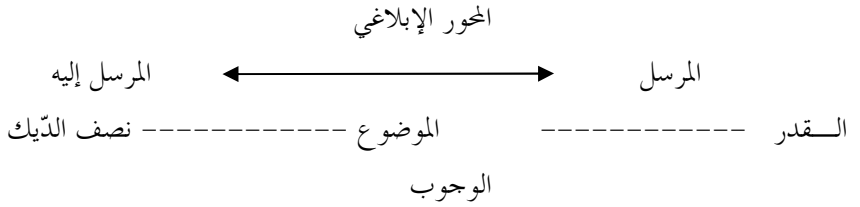

تعدّ ظاهرة التّشخيص من مقوّمات الحكاية الشعبية. وإذا كان العجيب يعمد إلى قطع الوثاق بين

الذّات وبين العالم، فإنّ القطيعة في هذه القصّة تتموقع بين الذات منفصلة عن الشّكل وبين الواقع الموضوعي (الكيان الروحي والنّفسي للدّيك إنساني بحت)، ممّا يضفي قدرا معيّنا من الواقعية على هذه الحكاية.

يأتي الأداء كتنفيذ للعقد المبرم بين نصف الدّيك وبين المرسل- القدر الّذي أرسى علاقته بالحجّ على الوجوب. ويرتهن تغيّر نمط الوجود السيميائي الافتراضي لنصف الدّيك بتفعيل برنامج /اقتناء الزّاد/ الموكل هذه المرّة للرّصينة الّتي استجابت على المستوى البراغماتي دون أن يكشف النّصّ عن الحيثيات القيمية الّتي بموجبها تتصرّف، "أعدّي لي يا سيّدتي زادا" ص70، والملاحظ هنا هو أنّه إذا كانت طبيعة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه في الأصل غير تناظرية، فإنّ التّجلّي الخطابي يعلن دائما في بعض المقاطع الحوارية عن قلب لهذا الاختلال: "يأمر سيّدته" مهما تغيرت الأدوار العاملية:

المهيمن ⟵ المرسل إليه ⟵ الدّيك

المهيمن عليه ⟵ المرسل ⟵الرّصينة

وفي هذا السّياق نكتشف أنّ التحوّل يشتغل على ثلاثة مستويات بالنّسبة إلى نصف الدّيك:

أ/ المستوى السّردي: الانتقال من الحالة (المقطوعة الأولى) إلى الفعل.

ب/ المستوى العاملي: الانتقال من دور الموضوع إلى دور الفاعل المنفّذ والمرسل.

جـــ/ المستوى الدّلالي-المنطقي: يحيل هذا التّحوّل السّردي للعامل إلى قلب للمضامين، فمن منظور تصديقي ينتقل الدّيك من الكينونة الحيوانية إلى الكينونة الإنسانية الفعلية بظاهر غير إنساني. إنّ منطق الأشياء هذا يبدو هو السّائد في الإبستمي العامّ للعالم النّصّي بالنّظر إلى الأفعال الذّهنية الممارسة من قبل الشّخصيات المنسجمة تماما مع هذا الوضع:

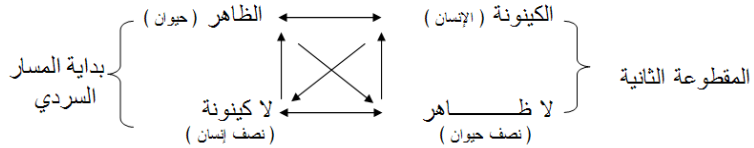

ربّما يكون هذا " الاشتغال غير-العادي" والغزير على حدود الظّاهر والكينونة من الثّوابت الّتي تعطي معنى للعجيب داخل الحكاية الشّعبية عموما. لقد مسّ التّحوّل أيضا على صعيد آخر الطّبيعة الاجتماعية لعلاقة الدّيك بالرّصينة، والّتي يمكن لنا الاقتراب منها في سياق تحليلي آخر(ربّما اجتماعي-

نفسي)، وعليه نسجّل أنّ هذا الوضع السّردي مع ما سيترتّب عليه من تحوّلات أخرى، قــد أفرغ صورة

/ الوصلة- الأمومة / المشار إليها أعلاه من محتواها:

قبل: الرّصينة ∩ الصّوص ⟵ نصف الدّيك- الحــيوان => الأمومة

≠

بعد: السّيّدة ∩ نصف الدّيك⟵ الدّيك - الإنسان => ؟

يبحث الدّيك، أثناء سفره إلى بيت اللّه الحرام، عمّن يرافقه وكان له ذلك بفضل دهائه في إقناع كلّ من الخروف والحمار والتّيس والهرّ، وهي حيوانات تشترك كلّها في صفة الألفة وتتماهى بدرجات متفاوتة مع القيم الإيجابية في القصص الشّعبي. ونحصي هنا أربعة برامج سردية ثانوية قام الدّيك بتفعيلها وترتكز على البعد الذّهني من محور الإبلاغ. لقد كانت تستهدف إرساء جهة الإرادة عند المرسل-إليه الجماعي(الحيوانات) انطلاقا من فعل إيهامي يقرأ خطابيا كــ / ترهيب / و ذلك ما يتجلّى في الملفوظات التّالية :

-الحمار: "هل تعلم أنّ سيّدك...محتاج إليك " ص71.

-الخروف: "عند العيد في منزل سيّدك...إنّه يبحث عنك ليذبحك..."ص71.

-التّيس : "الشّيخ المرابط...يوصيه بذبح تيس"ص 71 .

-الهرّ: "هل تعلم أنّهم يبحثون عنك ليقتلوك"ص71.

وفي هذه الحالات جميعها يتقابل الفعل الإيهامي مع تأويل إيجابي من طرف المرسل-الفاعل يكشف عن معرفة الفعل المميّزة عند الدّيك. ظاهريا، قد تبدو هذه الفقرة بلا دلالة على المجرى الحدثي، إلا أنّها في حقيقة الأمر محورية مادامت بنيويا متمفصلة مع الفقرة اللاحقة حيث تواجه المرسل مجموعة من العراقيل لم يكن ليتجاوزها ولينفّذ من ثمّ برنامجه لو لم تكن الحيوانات بصحبته. فعلى هذا الأساس يسوّغ لنا اختزال البرامج الأربعة في برنامج استعمالي واحد يهدف إلى إرساء القدرة عند الدّيك وبالتّالي ندرجها ضمن رؤية جمالية يقوم الرّاوي على ضوئها بإفراط في مسرحة الأحداث بغرض التّشويق، ما يعدّ من الثّوابت الأساسية في الحكاية الشّعبية ومسار الحكي بشكل عامّ. نرى من خلال ما تقدّم أنّ البحث عن القدرة استلزم نموذجا سرديا كاملا ، قائما مثلما مرّ علينا على تجييه الفعل بحيث يرمي إقناع الدّيك للآخرين إلى وصلتهم بالفضاء-الحجّ، وذلك بترغيبهم فيه ليتحاشوا الأخطار

الّتي تتهدّدهم. غير أنّهم رفضوا رفضا لم يصمد طويلا. يمكننا إسقاط هذه العملية على حدود المربّع السّيميائي كما يلي:

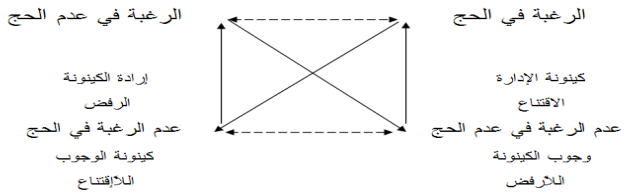

سنكتشف أن الترغيب في النّصّ لا يحيل إلى الإغراء بمحاسن الحجّ بقدر ما يبرز هذا الأخير كخلاص أوحد بالنّسبة إلى الحيوانات ولو مكرهة، وعليه يقرأ هذا الشكل من الإقناع: كفعل لعدم الرّغبة في عدم الحجّ (الضّرورة). وبما أنّ العاملين (المرسل- المرسل إليه الجماعي) منفصلان على المستوى الممثّلي، فإنّ هذا التّرغيب (فعل الإرادة) لا يخرج عن كونه وجوبا للفعل، ذلك أنّ الحدّين، الوجوب والإرادة، بيمعرّفان جزئيّا [2]

يتمفصل هذا التّحييه الفعلي داخل النّصّ مع إستراتيجية الدّيك في ترهيب الحيوانات، الّذي ينطوي على توليد الحالة النّفسية للخوف الممتدّ بدوره مقوليا إلى الفاعل وموضوع الخوف:

فا3 ⟵ (الحيوانات⋂الخوف). فا3 ⟵(فا 3⋂ مج /الموافقة/)[3].

نستنتج ممّا سبق أنّ الترغيب والتّرهيب يتعلّقان على التّوالي بتحييه الفعل والحالة ويهدفان ظاهريا إلى نقل الحيوانات الأربعة من الموت إلى الحياة وهي جاهلة في الواقع للمتاعب الّتي تنتظرها. فمن منظور تصديقي يتقدّم الفعل في كلتا الحالتين (التّرغيب والتّرهيب) ضمن مسارين مختلفين:

1- مسار الدّيك: لا يشير النّصّ إن كان تحسيس الدّيك للمرسل إليه الجماعي مستندا إلى حقيقة موضوعية. فانطلاقا من مسلّمة المحايثة الّتي نؤسّس عليها، لا يمكن إلاّ الجزم بالإثبات. زد على ذلك أنّ النّية في الحجّ تتعارض مع الكذب، سواء أتعلّق الأمر بالقيم النصّية أم المرجعية. تأسيسا على ذلك يمكننا فيما يأتي إسقاط موقف الدّيك منطقيا على المربّع السّيميائي:

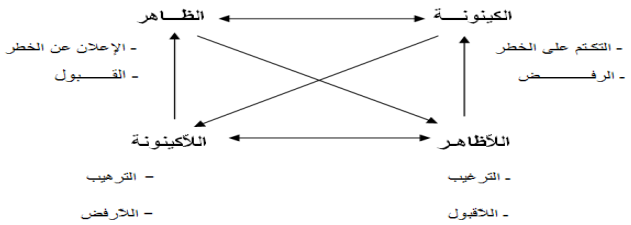

2- مسار الحيوانات: يعدّ تّقويم الحيوانات الإيجابي للفعل الإقناعي وصلة بظاهر الخطر:

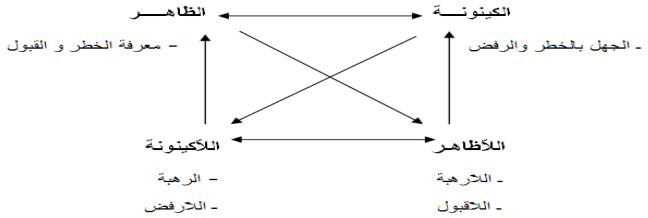

بـــ/ ظهور المانع: أو البرنامج المضادّ

تتحقّق في هذا المقطع السّردي الوصلة بالحجّ ،(فا8∩م)، على نحو ما يبرزه الملفوظ التّالي:

" فلمّا انقضى حجّهم..."ص75.

تشمل هذه الصيغة الشكلية ضمنيا وبكيفية متلازمة، حالة فصلية، تحيل على الصّعيد الخطابي إلى فشل الفاعل الجماعي المنضوية تحته الوحوش البريّة، في تحقيق برنامج /النّحر/ الّذي لّما يتجاوز حدود الكفاءة الجهاتية:

" كانت الوحوش البرية تأمل أن تنحر الحمار أو الخروف"ص73.

والحالة تلك، تظهر في هذا السّياق معطيات فضائية جديدة: الغابة والمنزل الّذي لا يعتبر وصورة "الباب" في النّصّ كحيز عمراني يجسّد سيادة واستقلال الحيوان-الفرد فحسب، بقدر ما يشفّ على تقسيم مجتمعي نوعي ويعبّر عن ثقافة هندسية وتصوّر معماري ما لدى الحيوانات البرية في عالم القصص الشعبي، وهي مسألة جديرة بالتفكير في مستوى سيميائي آخر.

لقد اقتضى هذا الأداء مجموعة عناصر يمكن إيجازها في النّقاط التّالية:

1/ يتزعّم نصف الدّيك مرافقيه في مقاومة العدوّ، فيوجّههم ويملي عليهم الحلول الّتي يراها مناسبة. وفي هذا السّياق نلاحظ أنّ تفعيله لبرنامج /الدّفاع عن النّفس/ يمرّ عبر سلسلة من الأوامر الّتي تلقى جميعها تقويما إيجابيا من قبل الأتباع ومن ثمّ أمكن إدراجهم داخل النّموذج العاملي في خانة المساعد والمرسل إليه المنفّذ الّذي يبرز بعد حوصلة الأدوار الأساسية في المقطوعة الأولى والثانية كما يلي:

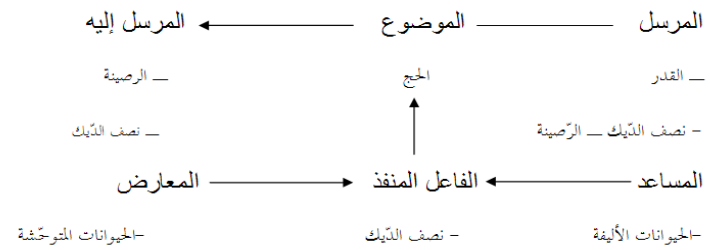

وذلك بالنّظر إلى موضوع القيمة الأساسي[4] المتمثّل في تحقيق الوصلة الرّوحية وتنفيذ البرنامج الّذي فعّله القدر مثلما مرّ بنا سلفا.

2/ يبدو أنّ معرفة الفعل، التّحييزية الّتي ترهن إزاحة المانع، حكر على نصف الدّيك. ومهما بدا لنا توفّرها لديه بالفطرة، إلاّ أنّها بصفتها ذاكرة مبرمجة، فنحن نفترض إذن أنّها تدرج كعنصر ناتج عن فعل العناية، أو بعبارة أخرى أنّ هذه المعرفة انتقلت إلى الدّيك كموضوع ذهني مسند على محور الإبلاغ من طرف الرّصينة في إطار الرّعاية الّتي تعهّدته بها.

3/ تتجسّد هذه المعرفة داخل النّصّ في حسن التّدبير وفي حسن توظيفها أيضا وفي كيفية إدراك العلم الموضوعي وتصوّر العلاقات الّتي يمكن أن تنشأ بين عناصره. إنّ مثل هذا الطرح يسنده خطابيا صورة "الرّأس" الّذي وجده الفاعل الجماعي المنفّذ "صدفة"، ثمّ ربطها باضطراب نّفسي من شأنها أن تثيره في الحيوانات البرّية.

4/ تتمظهر القدرة في هذا المقطع السّردي في مجموعة من الملفوظات المجسّدة لمجموع المؤهّلات الطّبيعية والجسمانية الفطرية الّتي توظّفها الحيوانات الأليفة في مواجهة العدوّ:

- "عالجه الهرّ بالعود الملتهب"ص74.
- "أمّا أنا فقطع أحدهم خرطومي"ص75.
- "على الحمار أن ينهق "ص73.

كما تتمظهر القدرة أيضا في ظهور "الأداة". فلئن كانت تـــقدّم هذه الأخيرة للبطل من قبل المانح في الحكايات العجيبة، فهي في هذه الحكاية عارضة ومجرّدة من الطّابع السّحري الخارق (لكنّها مع ذلك تحتفظ بمضمون الواقع السّحري). في المقابل، يمكننا أن نفترض أنّ القدر الّذي أوعز إليه بالسّفر، هو نفسه الّذي وضع الرّفقاء في طريقه وهو الّذي يفسّر غـــباء الحيوانات البرّية، وهو الّذي أوجد الإرادة.

5/ سرديا لاحظنا أنّ هذا البرنامج يتمفصل شكليا كما يلي: (فا4 U م ق). فالحيوانات المفترسة كانت تعتزم نحر الخروف أو الحمار بوصفهما موضوعا تستثمر فيه قيم تتموقع على النّظير الغذائي والمطبخي المتألف من مجموعة كلاسيمات (أو السيمات السّياقية) الّتي تنضاف إلى تلك الّتي رصدناها في المقطوعة الأولى:

[النّحر] - [الأكل] - [السّميد] - [اللّحم]

وهي تحيل إلى عمليات مبرمجة ، نظمية وأنموذجية، في تحضير الطّعام. فالفصلة بين الفاعل والموضوع على هذا المستوى، تفضي على صعيد المضامين إلى التّقابل :

/النّيّء – الطبيعة/ ≠/المطبوخ- الثّقافة/

4.2. **المقطوعة الثّالثة:** تمجيد الفضيلة [هناك سمع نصف الدّيك في ذات يوم...قتلت كلبتها على الفور]

تنبني هذه المقطوعة على الصّيغة النّحوية التّالية:

فا3 ⟵ (فا1 ∩ م)

(فا3⋂م)

الّتي تشير إلى ملفوظي حالة وصليين بين الرّصينة والذّهب الّذي جلبه لها نصف الدّيك على إثر احتياله على الأميرة ، من جهة، وبين الدّيك والحياة من جهة أخرى.

يمكننا أيضا أن نعيد صياغة هذا المقطع بشكل آخر:

فا3⟵(فا1 ∩م1 U فا2 –فا5)

وتقرأ خطابيا كحصول للرّصينة على الذّهب، فيما يحيل في إطار تضاعف البرامج السّردية إلى فقدان الأميرة لهذا الذّهب، ومادام فا3 يختلف في صعيد التّجلّي عن كلّ من فا2 و فا5 يمكننا بالضّرورة أن نستنتج فعلا متعدّيا بامتياز يتمفصل على المقولتين / السّلب / ضد / الإسناد/.

برنامج الإسناد: يقوم نصف الديك فور عودته من الحج بتفعيل برنامج الإسناد الّذي تحقّق بفضل دهائه الطّبيعي وكذا المساعدة الّتي قدّمتها له الرّصينة على البعد البراغماتي والمتمثّلة في الّبق والحصيرة والهراوة، بناء على طلبه: " أعدّي لي يا سيّدتي ..." ص75 .

لقد سبق أن ذكرنا في مستهلّ تحليلنا أنّ هذه المقطوعة تشكّل بالنّسبة إلى الفعل "عناية" مرحلة التّقويم على النموذج السّردي، و حتّى إن لم يظهر فيها نصف الدّيك مرسلا مقوّما بشكل جليّ إلا أنّ ثمّة مؤشّرات تثبت فرضيتنا:

أ- لنتأمّل المضمون التّعاقدي الّذي جاء على لسان السّارد:

-" عملت سيّدته بنصيحته" ص75. لدينا هنا فعل يشفّ على الوضعيات السّردية التّالية:

-الدّخول في وصلة مع النّصيحة باعتبارها رسالة مبلّغة على محور الإبلاغ.

-تفترض هذه الوصلة فعلا إقناعيا يحمل فيه الفعل-النّصيحة الحمولة الدّلالية :/ إملاء فكرة قصد الاحتكاك بشيء أو لتفاديه/.

والحال أنّ هذه الفكرة، بصفتها مشروعا، فهي تفضي إلى موضوع معارفي أو براغماتي مرتبط بقيم إيجابية، وبالتّالي يتأكّد وجود عقد ضمني يقضي في إطار التّبادل بتنفيذ برنامج الانتصاح الّذي يرهن المقابل المفترض دلاليا من النّصيحة، ويعدّ استجابة اختيارية نتعامل معها كتقويم إيجابي مفاده الاشتراك في منظومة القيم الّتي يشتمل عليها العقد الائتماني، وأيضا كتعبير غير تصريحي عن إرساء الرّصينة فاعلا محيّنا من حيث الإرادة والمعرفة والقدرة معا، تسعى على محور الرّغبة للاحتكاك بما تستلزمه النّصيحة من موضوع.

- إنّ موضوع القيمة الأساسي، على إثر القراءة الخطّية للقصّة المتبنّاة منذ البداية لا يتحدّد بشكل جلي بقدر ما تتحدّد قبليا القيم المستثمرة فيه. ذلك أنّ المرسل يدعو سيّدته للعمل بمشورته دون أن يفصح لها عمّا ينتظرها من مقابل، وما يشدّ انتباهنا بهذا المستوى من التّحليل هو أنّ القطع الذّهبية ليست في حدّ ذاتها قيمة فحسب بل تمثيل للبعد النّفعي الّذي ينطوي عليه الانتصاح، ما يسوّغ لنا إدراج هذا الأخير في خانة البرنامج السردي الاستعمالي.

- في الواقع، حتّى وإن تبدو قراءة كهذه مقبولة من الناحية المنهجية البنيوية، إلاّ أنّها لا تعدو عن كونها اختزالا تبسيطيا للعمق النّوعي متعدّد الأبعاد الّذي تحمله هذه القصّة، وكذلك لإحدى مقوّمات هذه الأخيرة طالما أنّ الحكاية الشعبية يقول برينو بتلهايم، شكل يسمح للقارئ –المستمع بتنظيم معيّن لعالمه الدّاخلي الفوضوي والسّجالي، وفقا لأزواج مفهومية متعارضة: / الخير/ ضد / الشّر/، / القوّة / ضد /الضّعف/ الخ...،لأنّ نصف الدّيك سيحصل على الذّهب عن طريق السّطو والخداع والمكر وسرقة الأميرة لصالح الرّصينة لا لشيء إلاّ لأنّها وفّرت له الدّبق والحصيرة والهراوة؛ لهذا السّبب نحن نشكّ في أن يقتصر مغزى نصّ بهذا الإحكام السّردي على رهان بسيط كهذا.

فالأمور إذن أبعد من ذلك بكثير، ولتجاوز هذه السّقطة التّأويلية، يتعيّن علينا أن نعيد بناء القصّة من الأسفل على ضوء قراءة معكوسة يبرز من خلالها "موت الكلب" و"الافتقار النهائي" للشرهة كمحاكمة- تقويم للرّذيلة المجسّدة سرديا في برنامج أكل نصف الدّيك وخرق التّعاقد

الاستهلالي. فيما يفترض تقديم المال للرّصينة نجاحا لها في أدائها وفي تطابق برامجها المحقّقة مع مضمون العقد المبرم في البداية. نحن نرى في ذلك كلّه إعلانا لتفوّق الفضيلة الّتي جاء برنامج الحجّ لمنحها ذلك التّأطير المقدّس وليدرجها، في صلب الحكاية، ضمن نظام قيمي يحكمه مرسل متعال متمثّل في القدر الّذي نعتبره المحرّك الأساسي لأحداث القصّة، وإلاّ كيف نفسّر وجود الأداة بالصّدفة، وكيف نبرّر الحلم الّذي يعدّ التينة حيّزا للتواصل و للإيعاز ولإبرام العقود؟

الملحق

ملخّص القصّة

يحكى أنّه كان هناك أختان تملكان ديكا، عندما كبر أصرّت إحداهما على أن تأكله بينما فضّلت الأخرى الإبقاء عليه حيّا. نشب بينهما، بالنّظر إلى هاتين الرّغبتين المتعارضتين، صراع، فانتهى بينهما الأمر إلى الاتفاق على تقاسمه. فأكلت" الشرهة" النصف، أمّا "العاقلة "فاحتفظت بالنّصف الآخر واعتنت به إلى أن شفي تماما من جروحه. فرأى ذات يوم أن يذهب إلى الحجّ. فكانت هذه الرّحلة الروحية له ولمرافقيه من الحيوانات الأخرى مليئة بالصّعاب استطاع أن يذلّلها في الأخير بفضل فطنته. وفي النّهاية نالت منه العاقلة الذّهب نظير رعايتها له، عكس الشرهة الّتي لم تحظ بشيء سوى التّعاسة.

---

[1] *Joseph COURTES, introduction à la Sémiotique narrative et discursive, éd HACHETTE PARIS / 1976 P 112*

[2] J. Courtés op.cit p75

[3] **مج**: الموضوع الجهاتي Objet modal

[4] راجع المقطوعة الثالثة.